المفتاح.....86
الفصل الثامن: في ظلمات المتوسط 90
بين المنكب وفاس.....91
بين الناظور وألميريا 97
الفصل التاسع: أبوابُ الغرباء.....101
فاس 102
ألميريا.....107
الفصل العاشر: العبودية 112
دار الدبغ.....113
الصوبات الزراعية 120
الفصل الحادي عشر: الإدراك 128
التيفوس 129
الرماد.....135
الفصل الثاني عشر: المداد 141
الحبر 142
اللسان.....148

فهرس

مقدمة 7

الفصل الأول: المحرقة 8

غرناطة - خريف 1499 م 9

الناظور - شتاء 2023 م 15

الفصل الثاني: أشواق المحبين 20

حي البيازين 21

شارع محمد الخامس 27

الفصل الثالث: جنازة الأسماء 33

ألونزو – ايزابيلا 34

402 39

الفصل الرابع: إيقاع العظام 44

مجاديف الغاليون 45

مجاديفُ الإسمنت 50

الفصل الخامس: خياطةُ الجرح 57

الشاهد والقبر 58

الجلد المستعار 62

الفصل السادس: الذكريات 66

سييرا نيفادا 67

عزيز 75

الفصل السابع: لعنة الفرار 81

السبحة 82

هذا المفتاح لم يفتح باب البيت بعد، لكنه فتح لي بابًا في عقلي. لن أعود للصوبة. سأبقى هنا، في المدينة. سأترجم، وسأكتب، وسأقاتل بالحبر بدلاً من المقص.

نظر أمادو إليه بإعجاب، ورفع قطعة الدجاج كأنها كأس شراب:

- إلى الكاتب رشيد، وإلى الحرية.

- إلى الحرية.

ناما تلك الليلة في الحديقة. تدثَّر بكلماتهِ وقلمه ودفتره، وبأملٍ واهٍ، ولكنه حقيقي. أملٌ بأنَّ الغربة قد لا تكون نهاية الطريق، بل قد تكون بداية الرواية.

(تمت بحمد الله)

- هذا هو ميراثنا الحقيقي يا رشيد، ألا نكون نسخةً مكررة. أن نجد أنفسنا ولو في آخر العمر. الليلة، أنا لست زوجة العامل البسيط، أنا زوجةُ الرجل الذي انتصر على خوفه.

أنهى المكالمة، لكن صوتها ظل يتردد في روحه كترتيلة مقدسة، مانحًا إياه سكينةً غريبة، وكأنَّ العالم كله قد صمتَ ليسمع ما سيقوله هذا الإنسان الجديد.

فتح رشيد الدفتر الذي تجعدت صفحاته من رطوبة البحر وحرارة الحريق، لكنها لا تزال بيضاء تنتظر.

تحت ضوء عمود الإنارة في الحديقة، بدأ يكتب.

لم يكتب عن الطماطمِ هذه المرة. كتب عن إيلينا، وعن مامادو، وعن شعوره وهو يترجم كلمة "جَوْع" إلى الإسبانية، وكيفَ أن الكلمةَ في الإسبانية تبدو باردة لا تشرح الألم، بينما في العربية واللغات الإفريقية تبدو كأنها تعض البطن.

كتبَ رشيد:

- (الفصل الثاني: لسان البرزخ، حين تصبح الكلمة جواز سفر).

- نحن العالقون في المنتصف، لسنا هناك ولسنا هنا. نحن المترجمون، ننقل أحلام الجنوب لتُكتبَ في ملفات الشمال. اكتشفت اليوم أنني لست بحاجةٍ لمعطفٍ لأختبأ، بل بحاجةٍ للغةٍ لأتواصل. سأكون صوت هؤلاء الصامتين، سأكتب قصصهم في هذا الدفتر، لعلها يومًا ما تصير "جواز سفر" إلى قلوب البشر، إن لم تكن جواز سفر عبر الحدود.

أخرج المفتاح الأسود المتفحم، وضعه على الورقة.

بدا المفتاح وكأنه قلمٌ من نوعٍ آخر، قلمٌ من حديدٍ ونار.

قال رشيد:

- انظر يا أمادو.

ارتجف الهاتف، لا ارتجاف الخوف المعهود، بل رعشة وترٍ مشدودٍ حان وقت عزفه. ضغط الزر الاتصال، وعبر الأثير الممتد بين غربته وصبرها، جاء صوت زينب مشوبًا بقلق الانتظار:

- رشيد؟

تنفس الصعداء، وكأنما يخرج من صدره دخان السنوات العجاف دفعةً واحدة، وقال بصوتٍ فيه نبرةٌ جديدة، نبرة رجلٍ استعاد ملامح وجهه من المرآة:

- يا زينب، لقد فعلتها. هل تذكرين ذلك الرجل الذي كان يحني ظهره للريح ويخشى ظله؟ لقد مات اليوم، تحت ركام الخنوع، وبُعِثَ شخصٌ آخر. أنا اليوم رشيدٌ آخر، رشيدٌ لا يخشى عن وجوده.

ساد صمتٌ قصيرٌ من الطرف الآخر، صمتٌ يُسمع فيه صوتُ الدمع يترقرقُ في المآقي، قبل أن تهمس:

- كنت أعلم، كنت أراك دومًا أكبر مما تظنه بنفسك.

تابع رشيد، وعيناه تلمعان بفخرٍ لم تعهداه من قبل، وكأنه يخاطب التاريخ من خلالها:

- يا زينب، أدركتُ الليلةَ حقيقةً غابت عني دهرًا؛ أنَّ الإنسان خُلق حرًا طليقًا كالضوء، وجريمتنا الكبرى هي أننا سمحنا للظروف أن تصهرنا في بوتقةٍ جاهزة، قوالب تسمى أحيانًا وظيفة وأحيانًا دراسة، فرضوا علينا أن نكون تروساً في آلاتهم، ونسينا أننا اليد التي تدير الآلة. أنا اليوم كَسَرْتُ القالب، وخرجت عن النص، لأكتب نصي بيدي. أنا فخورٌ، لا لأنني كسبت معركة، بل لأنني، ولأول مرة، لم أهرب من ساحة الحرب.

وصلته ضحكتها المبللة بالدمع، ضحكة نصرٍ تشبه زغاريد الأمازيغيات الجميلات:

تنهدت إيلينا، وأخرجت من جيبها ورقةً نقديةً من فئةِ العشرين يورو، وبطاقةً صغيرة.

- هذا ليس أجرًا، هذه هدية. وهذه بطاقة محامٍ يعمل معنا في قضايا اللجوء الإنساني. لا أعدكَ بشيء، فالقوانينُ صارمة، لكن ربما يجد لكَ ثغرة. تعال غدًا، نحتاج إليك.

أخذ رشيد المال والبطاقة، لم يشعر بالذلِ هذه المرة. شعر أنه استحقها بفكره، لا بظهره.

ركض إلى أمادو الذي كان لا يزال ينتظر على الرصيف، وقد نام من التعب.

- أمادو! انهض!

أيقظه بحماس.

- ماذا؟ هل جاءت الشرطة؟

- لا، بل جاء الليل ومعه الأمل.

اشترى رشيد دجاجةً مشويةً كاملة، وخبزًا طريًا، وزجاجة عصير. حملا الطعام وذهبا إلى حديقةٍ عامةٍ خلفية، بعيدًا عن الأنظار.

جلسا يأكلان بنهم. كان طعم الدجاج الساخن في فم رشيد ألذَ من كل ولائم الدنيا.

سأل أمادو وفمه ممتلئ:

- كيف فعلتها؟ رأيتكَ تتحدثُ مع الإسبانية وهي تنظر إليك بتقدير.

ضحك رشيد، وأخرج دفتره الصغير وقلمه من جيبه الخلفي:

- باللسانِ يا أمادو. اكتشفتُ اليوم أنني أملك مفتاحًا آخر غير المفتاح الحديدي. أملك اللغة، هم يحتاجون لمن يفهم لغة الألم، ونحن أساتذةٌ فيها.

- أنا رشيد البُناني، مجرد عابر سبيلٍ، لكنني أستطيع أن أكون جسرًا بينكِ وبينهم.

ترددت لحظةً، ثم ناولت الملف لرشيد:

- حسنًا، اسأل هذا الشاب عن اسمه، وهل يعاني من السل؟

التفت رشيد إلى الشابِ المالي الذي كان يرتجف.

ابتسم له رشيد، ووضع يده على كتفه. تحدث إليه بلهجةٍ هادئةٍ، مزجَ فيها الفرنسية ببعض الكلمات من لغة "البامبارا" التي تعلمها من أمادو في المخيم.

انفرجت أسارير الشاب، ثمَّ بدأ يتحدث.

ترجم رشيد للسيدة:

- يقول اسمه (مامادو)، عمره 19، لا يعاني من السل، لكن لديه جرحٌ ملتهبٌ في ظهره من ضربات الشرطة في بلده.

استمر رشيد في العمل. تحوَّل الطابور الفوضوي إلى نظام. كان يترجم الشكاوى، ويسجل البيانات، ويطمئن الخائفين. لم يكن يترجم الكلمات فقط، بل كان يترجم الوجع. كان ينقل أنَّاتهم إلى لغة تفهمها الأوراق الرسمية.

نسيَ رشيد نفسه لساعات، نسي أنه مهاجر غير شرعي، مطارد. شعر بنشوةٍ غريبة. نشوة أن يكون إنسانًا ذا قيمة، لا مجرد رقمٍ في حقل.

عند المساء، انتهى العمل. نظرت السيدة - التي عرف أنَّ اسمها "إيلينا" - إلى رشيد بامتنان.

- لغتكَ ممتازة يا رشيد. أنت لستَ عاملاً عاديًا، أليس كذلك؟

ابتسم رشيد بمرارة:

- كنت مؤرخًا يا سيدتي، في حياةٍ أخرى. واليوم أنا شبح يبحث عن ظل.

كان الجوع ينهش معدته، لكن عقله كان مشغولاً بشيءٍ آخر. كان يراقب الأجواء.

رأى سيدةً إسبانيةً في الخمسينيات، تبدو عليها ملامحُ الطيبة والصرامة في آنٍ واحدٍ، ترتدي سترة المنظمة، وتحمل ملفًا للأوراق. كانت تحاول الحديثَ مع مجموعةٍ من المهاجرينَ السنغاليين والماليين الذين وصلوا حديثًا بالقوارب.

كانت تتحدثُ بالإسبانيةِ بسرعةٍ، وهم ينظرون إليها بوجوهٍ جامدةٍ، لا يفهمون كلمةً.

- الاسم؟ العمر؟ أمراض؟

حاولت بالفرنسية الركيكة، لكن لهجتها كانت غير مفهومةٍ لهم. ارتفع صوتها، وبدا عليها التوتر.

خرج رشيد من الطابور، نسيَ جوعه للحظةٍ. تذكر المؤرخ رشيد، تذكر أنَّ قيمته ليست في عضلاته التي حملت صناديق الطماطم، بل في لسانه وعقله.

تقدم نحو السيدة:

- سيدتي.

قال بإسبانية سليمةٍ وأنيقةٍ، اكتسبها من دراستهِ الجامعية.

- هل يمكنني المساعدة؟ أنا أتحدث الفرنسية، والعربية، والإسبانية، والإنجليزية، وأفهم لهجات كثير من الأفارقة.

نظرت إليه السيدة بذهولٍ. رأت شابًا بملابس رثةٍ، وجههُ مغطىً بالغبار، لكن عينيه تلمعان بذكاءٍ وقَّادٍ، ولغته أرقى من لغة كثيرٍ من الإسبان.

سألته بشكٍّ:

- من أنت؟

اللسان

بعد ليلة الحريق، مشَّطت الشرطة المنطقة، وظل المزارعون يبحثون عن كبش فداءٍ لتعليق تهمة الإهمال عليها. كان الخيار الوحيد لرشيد هو الهروب إلى الأمام، نحو المدينة، بعيداً عن جحيم الصوبات الزراعية.

سار الاثنان بمحاذاة الطريق السريع، يختبئان في قنوات الصرف الجافة كلما اقتربت سيارة دورية. كان أمادو يعرج بشدة، يستند بيده الضخمة على كتف رشيد النحيل. كانا يبدوان كخيالين هاربين من لوحةٍ سرياليةٍ عن البؤس؛ رشيد بملابسه الملطخة بالسخام والمبيدات، وأمادو بساقه المتورمة وعينيه الزائغتين من الألم.

- إلى أين يا رشيد؟

سأل أمادو بصوتٍ متهدج.

أجاب رشيد، وهو يشدُّ الوشاح على وجهه:

- سمعت أنَّ هناك مطعمًا خيريًا في ألميريا، وربما نجد منظمةً تساعدك في علاج قدمك.

وصلوا إلى أطراف مدينة ألميريا عند الظهر. بدت المدينة نظيفة، باردة، ومنظمةً بشكلٍ مستفز. الناس يجلسون في المقاهي، يشربون القهوة، ويقرأون الجرائد، غير عابئين بالجحيم الذي يشتعل على بُعْدِ بضعة كيلومتراتٍ منهم. كان رشيد يشعر أنه كائنٌ فضائي، أو فيروسٌ يحاول التسلل إلى جسدٍ سليم.

وصلا إلى الساحة التي يقع فيها مقر "الصليب الأحمر" ومطعم الفقراء. كان المكان يمتلأ بالمهاجرين: مغاربة، جزائريون، أفارقة من جنوب الصحراء، وحتى بعض المشردين الأوروبيين. طابورٌ طويلٌ للحصول على وجبةٍ ساخنةٍ.

أجلس رشيد صديقهُ أمادو على الرصيف، ووقفَ في الطابور.

أعطاه قطعة جلدٍ فاخرة، مدبوغةً بعنايةٍ فائقة، ناعمةً كالحرير، ولونها أحمر قاني.

- هذه لتغلفَ بها كتابك. ليكون جلد كتابك من صنع يديك، كما كان مصيرك من صنع يديك.

عاد عامر إلى البيت بقطعة الجلد.

في تلك الليلة، أنهى الفصل الأول، غلف الأوراق بالجلد الأحمر.

نظر إلى الكتاب، كان يشبه "المصحف" الذي رآه يحترق في غرناطة، لكن هذا الكتاب نجا.

نظر إلى الجدار، حيث كان المفتاح معلقًا. مكان المسمارُ لا يزالُ فارغًا، لكنه لم يعد يشعر بالحسرة.

همس لعائشة:

- لقد عوضني الله، المفتاح الحديدي ضاع، لكنني صنعت مفتاحًا من كلمات. هذا الكتاب هو مفتاح العودة يا عائشة. قد لا نعود بأجسادنا، لكن قصتنا ستعود. سيقرأها الناس، وسيعرفون أننا كنا هنا، وأننا لم ننهزم.

وضعت عائشة يدها على الكتاب، وقالت بيقين:

- سيقرأها حفيدك يا عامر، وربما يأتي يوم، يحمل فيه أحدٌ من نَسْلِكَ هذا الكتاب، ويعبر به البحر عائدًا، ليفتح به أبوابًا أغلقتها الريح.

أكتب لكي يعرف ابني الذي لم يولد بعد، أنَّ أباه لم يكن (ألونزو)، وأنَّ جدهُ لم يمت عبثًا. أكتب لأنَّ الكتابة هي أرض من لا أرض له.

بدأ يكتب. تدفقت الكلمات منه كالسيل. كتب عن طفولته، عن شوارع البيازين، عن رائحة الخبز في الصباح، عن صوت النوافير، عن عائشة حنَ رآها أول مرة، عن محرقة الكتب، عن التعميد القسري، عن الرحلة في البحر، وعن المفتاح الذي باعه ليشتريَ الحياة.

لم يشعر بمرور الوقت. ذابت الشمعة، فأضاءت له عائشة شمعةً أخرى، وجلست بجانبه تغزل الصوف بصمت، تراقب قلمه وهو يركض على الورق، وتستمع لصوتِ صريره الذي كان أجمل عندها من صوت العود.

مع مرور الأيام، تغير نمط حياة عامر.

في النهار، كان دباغًا يعمل بجدٍ ليطعمَ بيته. وفي الليل، كان مؤرخًا يبني مملكته.

كان المعلم إدريس يَلْحَظ التغير في وجه عامر. لم يعد ذلك الوجه البائس المنكسر، صار فيه نورٌ وهيبة.

ناداهُ المعلم ذات يوم:

- يا عامر، سمعت أنكَ تكتب.

- نعم يا معلم.

- وهل تذكر الدباغة في كتابك؟

ابتسم عامر:

- نعم، أذكر أنَّ الدباغة علمتني الصبر، وأنَّ الجلد لا يصيرُ ثمينًا إلا بعد أن يُدْعَكَ ويُضْرَب. نعم يا معلم، سأكتبُ أنَّ دار الدبغ كانت مدرستي الثانية.

رَبَتَ المعلم على كتفه:

- بارك الله فيك، خذ هذه.

ابتسمت عائشة، وكأنها كانت تنتظرُ هذه اللحظةَ منذُ زمن.

- وأنا أقولُ لكَ اكتب يا عامر، منذُ متى وأنتَ صامت؟

- ولكن أين الورق؟ الحبر؟ نحنُ بالكادِ نعيش.

قامت عائشة واتجهت إلى الزاويةِ حيث تخبئ صرَّةً صغيرة. أخرجت منها سوارًا فضيًا رفيعًا، آخر ما تبقى من زينتها.

- بع هذا، واشترِ به ورقًا ومدادًا.

- لا يا عائشة! هذا ذكرى أمك

- أمي ماتت وغرناطة ماتت. والذكرى الحقيقية هي ما ستحفظه أنت في الورق. خذه يا عامر، لا أريد فضةً في يدي، أريد تاريخًا في بيتي.

في اليوم التالي، لم يذهب عامر إلى العمل، بل ذهب إلى السوق. باع السوار، واشترى رزمةً من الورق، وقارورة حبرٍ أسود، وأقلام قصب.

عاد إلى الغرفة، جلس على الأرض ووضع الورق أمامه. رائحة الورق الجديد أنْسَتْه رائحة الدباغة. شعر أنَّ رئتيه تتنفسان لأول مرةٍ منذ عامين.

أمسك القلم، غمسه في الحبر.

ارتجفت يده قليلاً. اليد التي اعتادت حمل الجلود الثقيلة، هل لا تزال قادرةً على رسم الحرف الرقيق؟

أغمض عينيه، استحضر صورة ساحة الرملة، صورة النار، صورة أبيه.

فتح عينيه، وكتب في أعلى الصفحة الأولى، بخطٍ أندلسيٍ جميل، فيه شيءٌ من القوة والحزن:

- بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب "محنة الغريب"، أكتبه أنا عامر بن محمد، لا لأبكي ملكًا مُضاعًا، بل لأشهد على عصرٍ أرادوا فيه مسخ الإنسان.

تحترق، ورأيت الأسماء تُبَدَّل. المشكلة ليست فيمن يروي، بل فيمن يكتب. نحن نعمل في النهار لنأكل، فمن يملك ثمن الورق والمِدَاد ليكتب في الليل؟

نظر الشيخ إليه طويلاً، رأى في عينيه بريقًا لا تخطئه عين العالم.

- اقترب يا بني.

تقدم عامر وجلس بين يدي الشيخ.

- قلتَ أنكَ ابنُ محمد الغرناطي؟ القاضي؟

- نعم سيدي. القاضي الذي أجبروه على التَّنصُّر وعاقبوه على التسبيح.

تنهد الشيخ، ومسح على لحيته البيضاء. رحمهُ الله، كان جبلاً من جبال العلم. وأنت يا ولدي ماذا تعمل؟

- أعمل في دار الدبغ، أصنع الجلود التي تكتبون عليها، وتنتعلونها.

ساد الصمت بين الحضور. كان في جواب عامر عزةٌ وكرامة أجبرت الجميع على الصمت.

قال الشيخ:

- يا عامر، الحبر الذي في صدرك أغلى من الصباغة التي في يدك. إذا كنت تملك ما ترويه، فلا عذرَ لك. اكتب، اكتب ولو على العظم، ولو على الحجر. التاريخ أمانة، وأنتَ حاملها.

خرج عامر من الجامع تلك الليلة وهو يحمل همًا جديدًا، لكنهُ همٌ يسعد القلب، إنه هم التدوين.

عاد إلى غرفته في الخان. وجد عائشة قد أعدت العشاء البسيط، حساء عدسٍ وخبزًا.

لم يأكل، جلس أمامها، وعيناه تلمعان:

- عائشة، الشيخ قال لي اكتب.

- واعلموا عباد الله، أنَّ المدن لا تموت بانهيار أسوارها، بل تموت بموت تواريخها. فإذا نسي الناس قصتهم، صاروا كالأنعام السائمة، لا يدرون من أين جاؤوا ولا إلى أين يذهبون. انظروا إلى الأندلس.

ساد صمتٌ ثقيل. كلمةُ الأندلس كانت جرحًا عميقًا في فاس، التي تمتلئ بالموريسكيين الذين فروا من الأندلس.

تابع الشيخ:

- لقد ضاعت الأرض، وهذا قضاء الله. لكن المصيبة الأعظم هي ضياع الخبر. الكتب أُحْرِقت، والعلماء قُتلوا أو هُجِّروا، ومن بقيَ هناكَ يُجْبَرُ على التنصير. أخشى أن يأتيَ يومٌ لا نجد فيه من يروي سيرة الأندلس وقصة غرناطة إلا أعداءها.

نزلت الكلمات على عامر كالمطرقة: (من يروي القصة؟)

نظر إلى يديه المختبئتين، اللتان كانتا تنسخان الكتب، واليوم تدبغان الجلود.

رفع يده لا إراديًا، يطلب الإذن بالكلام.

لاحظه الشيخ:

- تفضل يا بني، ألكَ سؤال؟

تردَّد عامر لمَّا رأى العيون كلها اتجهت إليه. بعضهم لاحظ آثار الصباغة على أطرافِ أصابعه، فهمسوا:

- دبَّاغ! ماذا سيفهم في التاريخ؟

استجمع عامر شجاعته، وقال بصوتٍ هادئٍ ورصين، بلغةٍ عربيةٍ سليمةٍ أذهلت الحضور:

- يا سيدي الأرض قد تضيع، لكن الذاكرة لا تموت مادام هناك شاهد. أنا عامر بن محمد الغرناطي، كنت شاهدًا على محرقة باب الرملة. رأيت الكتب